مقهى صـــورات

للفيلسوف الروسى تولستوى

كان فى بلدة صورات من أعمال الهنـد مقهى يجتمع فيه المسافرون من جميع أطراف العالم فيتحاورون ويتسامرون

وفي يوم من الأيام هبط إلى هذا المقهى عالم روحانى فارسى أفنى حياته فى درس اللاهوت وفى التأليف فيه . ومن كثرة ما فكر وقرأ وكتب وناقش اختلط عليه الأمر وأصبح لا يعتقد حتى بوجود إلٰه . فلما سمع الشاه بذلك نفاه عن بلاد فارس

وكان لهذا الرجل عبد أفريق لا يفارقه لحظة ، فلما دخل سيده المقهى جلس هو على صخرة بجانب الباب تحت أشعة الشمس يطرد عنه الذباب . فلما استوى الفارسى على أحد القاعد طلب من النادل كوباً من الأفيون . ولم يكد يفرغ من شربه حتى أخذ الأفيون يعمل عمله فى رأسه ، فقال يخاطب عبده من الباب وقد كان مفتوحاً :

« قل لى أيها العبد البائس هل تعتقد بوجود إلٰه ؟ »

فأجاب العبد : « طبعاً » . وفى لمح البصر أخرج من منطقته تمثالاً صغيراً من الخشب وقال : ها هو ذا . ذلك هو الإلٰه الذى حمانى وحرسنى من يوم ولدت . وكل واحد من بلدنا يعبد الشجرة التى منها صنع هذا الإلٰه .

دهش كل من كان فى المقهى لهذه المحاورة الشاذة بين الفارسى وعبده . وما أتم العبد كلامه حتى انبرى له واحد وكان من أتباع برهمة إله الهنود وقال : « أيها الغبي الحقير ! أتعتقد أن فى الامكان أن يحمل الله فى منطقة رجل ؟ لا يوجد غير إله واحد هو برهمة ، إنه أعظم من جميع العالم ، لأنه خلقه . برهمة هو وحده الإلٰه العظيم ، ولأجله شيدت المعابد على ضفاف الكانج وفيها يعبده البراهمة كهنته الحقيقيون الذين هم وحدهم يعرفون الإله الحقيق دون سواهم . لقد مضى عشرون ألف سنة على ظهوره ، وبالرغم من الفتن والثورات المتوالية ظل هؤلاء الكهنة قابضين على ناصية الأمور ، وما ذلك إلا لأن برهمة قد حرسهم وحماهم طوال هذه السنين »

قال ذلك البرهمى وهو يعتقد أنه أفحمهم جميعاً ، إلا أن صيرفياً يهودياً كان حاضراً فأجابه قائلاً : « كلا ، ثم كلا . إن معبد الإلٰه الحقيقى ليس فى الهند ، والإله الحقيقى ليس إله البراهمة ، وإنما هو إله إبراهيم واسحق ويعقوب ، ولا يحمى أحداً غير شعبه المختار ... بنى اسرائيل . إن شعبنا هو شعبه الذى يحبه ، وما تشردنا فى أنحاء العالم إلا لأنه يريد تجربتنا . ولقد وعد بجمع شتات شعبه فى أورشليم ، وعندئذ — فى معبد أورشليم ، أعجوبة العالم القديم بعد رده إلى سالف عزه ورونقه — سوف يحكم الاسرائيليون جميع الأمم »

وهنا أجهش اليهودى بالبكاء ، وأراد أن يستمر فى الكلام إلا أن مبشراً إيطالياً قاطعه قائلا : « إن هذا الذي تقوله ليس حقاً ، لأنك تنسب الظلم إلى الله جل جلاله . وإنه لمن المستحيل أن يحب الله شعبك أكثر من بقية الشعوب . إن كان حقاً ما يقال من أن الله فى القديم قد فضل الإسرائيليين واصطفاهم على باقى العالمين ، فإنه قد مضى ألف وتسعمائة سنة على خروجهم عليه وإغضابهم إياه ، مما أدى إلى هلاكهم وتشريدهم فى بقاع الأرض حتى لا ينتشر مذهبهم . ولقد اضمحل إلا من بعض أنفاس

تصّعد هنا وهناك . إن الله سبحانه وتعالى لا يفضل أحداً على أحد ، ولكنه يدعو هؤلاء الذين يبغون الخلاص إلى أحضان كنيسة روما الكاثوليكية ، ولا خلاص لمن كان خارج حدودها»

فالتفت قسيس بروتستانتي — اتفق أن كان حاضراً — إلى المبشر الايطالي بوجه ممتقع وأخذ يقول له :

« كيف جاز لك أن تقول أن لا خلاص إلا لمن كان تابعاً لمذهبكم ؟ لا يخلص إلا هؤلاء الذين يخدمون الله من صميم قلوبهم كما جاء في الانجيل وكما أشار به المسيح »

عندئذ التفت إلى هذين المسيحيين ، تركي من موظفي الكمارك في صورات ، وقد كان جالساً في المقهى يدخن في (غليون) ، وقال لهما بلهجة المسيطر :

« اعتقادكم في الديانة المسيحية باطل . لقد حل محلها قبل ألف ومائتي سنة دين صحيح هو دين محمد (ص) . ليس لك إلا أن تجيل بصرك في أرجاء العالم لترى انتشار هذا الدين الصحيح في أوربا وآسيا ، حتى في بلاد الصين المستنيرة . لقد قلنا أننا إن الله غضب على اليهود وازدراهم ، وذكرنا على سبيل المثال حالة اليهود الآن وما يقاسونه من ذلة ومسكنة ، فما أحرى بكما أن تعترفا بصحة دين محمد لأنه هو الوحيد الظافر المنتشر طولاً وعرضاً . لا ينجو سوى تابعي محمد (ص) خاتم أنبياء الله »

وهنا أراد الفارسي ، وهو من أتباع الرسول العربي (ص) أن يتكلم ؛ إلا أن جدالا عنيفاً شجر بين جميع الأجانب الموجودين المنتمين إلى مذاهب شتى ، فقد كان بينهم مسيحيون من الحبشة ، ولاميون من تيبت ، واسماعيليون ومجوس ؛ وكان جدالهم في الله وكيف يجب أن يعبد ؛ وكل يؤكد أن الله الحقيق لم يعرف ولم يعبد إلا في بلده

لم يبق واحد في المقهى لم يشترك في هذا الجدال والصياح إلا صينياً من أتباع كونفوشيوس . كان جالساً يرشف الشاي ويستمع إلى المتكلمين دون أن ينبس ببنت شفة . فلما رآه التركي جالساً على هذه الحالة تقدم إليه محاولاً اجتذابه إلى رأيه بهذه الكلمات : « أنت لم تنطق أيها الصيني العزيز حتى الآن بكلمة ، ولم يكدر صفوك كل هذا الصخب ، ولكنك إن تكلمت فني وسعك أن تؤيد ما أقول . لقد حكى لي بعض التجار الصينيين الذين يطلبون مني المعونة ، أنكم معشر الصينيين تعتقدون على كثرة ما عندكم من الأديان والمذاهب أن الديانة الاسلامية هي أفضل الديانات وأنكم تعتنقونها عن طيبة خاطر . أيد إذن كلماتي وأبن لنا رأيك في الله الحقيق ونبيه »

فهتف القوم صائحين : « حسن ، حسن » ثم التفتوا إلى الصيني وقالوا « أسمعنا رأيك في هذا الموضوع »

فأغمض الصيني عينيه وأخذ يفكر ثم فتحهما ثانية وأخرج يديه من كمي ردائه المريضين وطواهما على صدره وأخذ يتكلم بصوت هادئ رزين :

سادتي : يظهر لي أن الذي يحول دون اتفاق الناس في قضايا الدين يرجع خاصة إلى الزهو الفارغ . فإن تفضلتم فأصغيتم إلي سأقص عليكم قصة توضح لكم ما غمض من هذه المشكلة :

تركت الصين قاصداً هذه البلاد على ظهر باخرة انكليزية طافت حول العالم . وقدرست هذه بنا الباخرة على الساحل الشرقي من جزيرة صومترا لتقاد الماء . وكنا جماعة من مختلف الأجناس ، وكان الوقت ظهراً ، فنزلنا إلى البر وجلسنا تحت شجرة من شجر جوز الهند على شاطىء قريب من القرية . ولما جلسنا تقدم نحونا رجل أعمى علمنا بعدئذ أنه فقد بصره من كثرة ما حدق في الشمس محاولا سبر أسرارها ومعرفة كنهها . سعى كثيراً للوصول إلى مبتغاه وأطال التحديق في الشمس دون أن يدركه إعياء حتى أحرق وهج الشمس عينيه فأصبح أعمى . وبعد ما فقد بصره صار يكلم نفسه قائلا : « نور الشمس ليس سائلا ، إذ لو كان كذلك لكان في الامكان صبه من آنية في أخرى وتحريكه كما يحرك الهواء الماء ؛ ولا هو نار ، إذ لو كان ناراً لأطفأه الماء ؛ ثم هو ليس روحا لأنه منظور ، ولا هو مادة لأن المادة تنقل ؛ وبما أن نور الشمس ليس سائلا ولا ناراً ولا روحا ولا مادة فهو إذن لا شيء »

على هذه الطريقة كان يحاور . وبنتيجة تحديقه المستمر في

الشمس وكثرة تفكيره فيها كما أسلفنا فقد بصره وعقله وأصبح لا يعتقد بوجود الشمس

وكان لهذا الأعمى عبد يقوده ، فلما اقتربا منا أجلس العبد صاحبه تحت شجرة وارفة ، ثم التقط جوزة من الأرض وأخذ يصنع منها سراجاً : ابتدأ أولا بتقشير الجوزة ، ثم أخذ ليفة فبرمها ثم عصر دهناً من الجوزة في القشرة ، ثم نقع الفتيلة فيها فأصبح له من ذلك كله سراج يضيء له الظلام

وهنا تنهد الأعمى وقال لعبده : « ألم أكن على حق حين قلت لك يا عبد أن لا وجود للشمس ؟ ألا ترى هذا الظلام الدامس ؟ ومع ذلك يقول الناس بوجود شمس ! إذا كان صحيحاً ما يقولون ، فما هي ؟ »

قال العبد : « لا أعرف ما هي الشمس . تلك ليست مصلحتي ، ولكني أعرف ما هو النور . ها قد صنعت نوراً أستطيع به أن أخدمك وأن أجد كل ما أطلبه في الكوخ »

وهنا التقط العبد قشرة الجوزة قائلاً : « هذه شمسي »

وكان رجل أعرج جالساً وإلى جانبه عكازه ينصت إلى هذا الحوار الشائق ، وما كاد يلفظ العبد كلمته الأخيرة حتى أغرق في الضحك وقال يخاطب الأعمى :

يظهر أنك ولدت أعمى ، ولما كنت لا تعرف ما هي الشمس فسأقول لك ما هي . الشمس كتلة من نار تخرج من البحر كل صباح ، وترتفع ثم تهبط كل مساء ، وتتوارى بين جبال جزيرتنا . لقد رأى الناس جميعاً هذا ، ولو كنت بصيراً لرأيتها أنت أيضاً

ثم أعقبه سماك كان يستمع إلى الحديث موجهاً الكلام إلى الأعرج :

« يظهر لي أنك لم تر ما وراء جزيرتك . ولو طفت كما طفت أنا في زورق الصيد لعلمت أن الشمس لا تغيب في جبال جزيرتنا ، ولكنها كما تشرق من البحر كل صباح ، تغيب في البحر كل مساء . إن هذا الذي أقوله لك صحيح لا شك فيه لأني أشاهده بعيني كل يوم »

وهنا قاطعه هندي كان من جماعتنا قائلاً : لشدّ ما يدهشني أن أسمع هذا الهراء من رجل عاقل مثلك ! كيف يجوز لكتلة نار أن تهبط في الماء ولا تنطفىء ؟ الشمس ليست كتلة نار أبداً بل هي إلـه يدعى « ديفا » وهو ما ينفك يركب عجلة يدور بها حول جبل فيدو الذهبي فتهجم عليه في بعض الأحيان الحيتان المشئومتان (راكو وكيتو) وتبتلعانه ؛ وعند ذلك تصبح الأرض في ظلام . إلا أن كهنتنا لا يتنكون يصلون ويضرعون لذلك الإله حتى يطلق سراحه . لا يظن أن الشمس تضيء بلدته وحدها إلا من كان غبياً مثلك لم يبرح جزيرته قط »

فقاطعه ربان سفينة مصرية وقال له : « أنت أيضاً مخطىء ، ليست الشمس إلـهاً ولا هي تدور حول الهند ولا حول جبلها الذهبي فحسب » لقد طوفت كثيراً في البحر الأسود وعلى طول سواحل جزيره العرب ، ورأيت أيضاً مدغشقر وجزائر الفيليبين ، وفي كل هذه الأماكن تبزغ فيها الشمس ، مما يدل على أن الشمس لا تضيء الهند وحدها ولكن تضيء الأرض كلها ؛ ولا هي تدور حول جبل واحد وإنما تشرق في الشرق الأقصى وراء جزر اليابان ، ثم تغرب بعيداً ... بعيداً في الغرب وراء الجزر البريطانية . ولهذا السبب يسمى اليابانيون بلادهم « نيبون » ومعناه « مولد الشمس » . أعرف هذا جيداً لأني رأيت كثيراً ، وسمعت أكثر من جدي الذي ركب البحار كلها »

وكان يريد المصري أن يستمر في حديثه لو لم يقاطعه بحار انكليزي كان في سفينتنا قائلا :

« لا يعرف أحد عن حركات الشمس قدر ما يعرفه الناس في انكلترا . ليس للشمس مشرق ولا مغرب ، وإنما هي تدور دائماً حول الأرض . إن هذا الذي أقوله لا شك فيه . ألم تنته الآن من طوافنا حول العالم ومع ذلك لم نصطدم بالشمس ؟ أينما حللنا وجدنا الشمس تطلع صباحاً وتغيب مساء كشأنها هنا ! .

وأخذ الانكليزي عصاً وراح يرسم دوائر على الرمل ليرينا حركات الشمس وكيف تدور حول الأرض ، إلا أنه لم يستطع شرحها بوضوح فقال مشيراً إلى ربان السفينة : أترك شرحها إلى هذا الرجل فهو أعلم بذلك مني »

وكان ربان السفينة رجلا ذكياً يصغى إلى الحديث بسكون دون أن ينبس بكلمة ، فلما طُلب منه الكلام اتجهت الأنظار إليه وبدأ يقول :

« أنتم تحاولون التضليل وما تضلون سوى أنفسكم . إن الشمس لا تدور حول الأرض ، بل الأرض هى التى تدور حول الشمس مرة فى كل سنة ، وتدور حول نفسها مرة فى كل أربع وعشرين ساعة . فيتضح من هـذا أن لا فرق بين اليابان وجزر الفيليبين وسومطرا وأفريقيا وأمريكا وأوربا وغيرها ، فإن نصيب الجميع من أشعة الشمس واحد . فالشمس إذاً لا ترسل نورها على جبل واحد ولا جزيرة واحدة ولا بحر واحد حتى ولا على أرض واحدة ، وإنما تستضىء بنورها جميع الكواكب أيضاً . فلو نظرتم فى السموات عوضاً عن نظركم إلى الأرض لأدركتم كل هذا ولما زعمتم بعد ذلك أن الشمس تضىء لكم أو لمدينتكم فقط »

هكذا تكلم الربّان الحكيم ، وإذا تكلم فإنما يتكلم عن خبرة واسعة من كثرة ما ساح فى البحار ومن طول ما حدّق فى السموات

* * *

هذا الذى قيل فى الشمس يقال أيضاً فى الدين . إن السبب الذى يحول دون اتفاق الناس فى مسألة الدين إنما هو التفاخر وما يسببه من شحناء . كل رجل يريد إلهاً له ، أو على الأقل إلهاً خاصاً لأمته ، وكل أمة تريد أن تحصر فى معبدها الله الذى لا يسعه العالم

وما هذه المعابد بالنسبة إلى العالم الذى خلقه الله ليجمل فيه الناس أمة واحدة وديانة واحدة ألا وهى الإنسانية ؟

لقد شيدت المعابد الإنسانية على غرار هذا المعبد الذى شيده الله للناس ، كل معبد له أحواضه وأقبيته وصوره ونحوته ونقوشه وكتبه ومذابحه ومحاريبه وكهنته . ولكن أيوجد معبد له حوض كحوض الاقيانوس أو قبو كقبو السموات ؟ وأين تلك المصابيح الباهتة التى تضىء المعابد الإنسانية من الشمس والقمر والنجوم ؟ أو تلك الصور الجامدة من رجال أحياء تغمر قلوبهم بالحب ؟ وهل يوجد وصف فى أى سفر من الأسفار عن كمال الله وحسنه أروع أو أبسط من هذه النعم التى أسبغها الله على عباده لخيرهم وسعادتهم ؟ وهل من تضحيات أسمى وأرفع من هذه التى يقدمها الرجال والنساء على مذبح الحب ؟ ثم ما هذه المذابح المنصوبة فى الكنائس إذا قيست بقلب رجل كريم يطفح حباً وحناناً وقد رضى الله به مذبحاً لتقديم القرابين له

كلما سما الإنسان فى فهم الله ازداد به علماً ، وكلما ازداد به علماً اقترب منه ، وذلك باحتذائه إياه فى إحسانه وعطفه وحبه

ليكف إذن ذلك الذى يرى نور الشمس يغمر العالم عن احتقار ذلك الرجل الخرافى الذى يرى فى معبوده قبساً من هـذا النور . ليكف حتى عن ازدراء الكافر ، لأنه أعمى ولا يرى الشمس ألبتة »

هكذا تكلم الصينى تابع كونفوشيوس ، فصمت كل من كان فى المقهى ولم يعد أحد يدعى أن ديانته هى الفضلى

يوسف رشا

فى أصول الأدب

للأستاذ احمد حسن الزيات

كتاب جديد فريد فى نوعه . يشتمل على أبحاث تحليلية طريفة فى الأدب العربى وتاريخه . منها تاريخ الأدب وحظ العرب منه . العوامل المؤثرة فى الأدب . أثر الحضارة العربية فى العلم والعالم . تاريخ حياة ألف ليلة وليلة وهو أوفى بحث كتب فى هذا الموضوع إلى اليوم . ثم قواعد تفصيلية للرواية التمثيلية الخ الخ ...

يطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنه ١٢ قرشا